



اختلطت الأصوات من ربوع الغوطة الشرقية في آذاننا؛ فمن تحت الأنقاض صوت امرأة عفيفة تنادي تتمسك بحجابها لا يظهر شيء من شعرها أو جسمها، دون أن تعي أن الركام غطّى عورة جسمها الظاهرة وكشف عن سوء النظام العالمي! ومن كثيف غبار الصواريخ صوت طفل أضعاع والديه فما يبصرون من شدة الغبار وقد تعثر بأعصابهما وهو يجري يبحث عنهم لا يعي أنهم صاروا قطعاً تناثرت في الأرض كما تناثرت كرامة العرب والمسلمين دون أن يجمعها جامع!

مع صوت لعجوز هدّته سنوات الحصار يبحث عن نظارة يرى فيها طريقه ليخرج من بيته المتهدّم فوقه، دون أن يرى العالم الأعمى ما يحدث. مع صوت أب يحتضن طفله يودع بدموع العيون، وأي لغة أبلغ من لغة العيون! عميّت عيون كلّ ظالم وساكت؛ وقد قيل: الساكت عن الحق شيطان أخرس، فما هو الساكت عن الدماء والمظالم!

مررنا كغيرنا في الدراسة على ما سُمي: الألم العقري، يقول الشيخ الأديب علي الطنطاوي: "لقد كنت أشكو فيها (يعني بغداد وهو يحكي ذكرياته فيها) ألم الغربة وأحن إلى الوطن، فصررت في وطني أحن إلى تلك الغربة وليلاليها، وما ظلمني موطنني وما أنكرني، وما كنت لأذمّه صارقاً فكيف أذمه بما ليس فيه، ولكنما هي الدعوة، مللتها واهتوبتها: إني أشكو ألم الراحة فأعطيوني به راحة الألم".

ذلك الألم العقري الذي يفتح القلوب بآيات الشعر، فإني منذ فقدته لم أعد أحسّ بأنني ذو قلب! فالألم العقري هو الذي يفجر الأوجاع فتناثر في الأجواء شعراً صارقاً يخرج من القلب فيخترق الأسماع والانتظار نحو القلوب بلا استئذان. أو يخرج نثراً لا يأسره وزن أو قافية بل شعور إنساني صادق يكفل له ما كفله للشعر وزنه وقافيته ليحفظ ويُسّير في الآفاق.

إننا أمام آلية الموت التي تحصد البشر والجمر في الغوطة الشرقية نكفر بكل السياسة، نكفر بكل القوانين الدولية التي تنام عندما يشاء لها واضعوها أن تنام، فتغفو عينها - عميّت - عن كل آثام المجرمين ولا تميّز في الوجوه الظالمة من الضحية.

تنظر في الشاشات لترى في العالم المجنون فتى يجني بغير سبب على نحو عشرين فتى في أميركا عبثاً، فيسارع المسؤولون في مختلف الدول تعزى المسؤولين في الولايات المتحدة بمقتل الأطفال الضحايا، حتى من دول تظن أن بينها وبين أميركا ما صنع الحدّاد، وإذا يوحّدهم الألم الإنساني على الفتية الضحايا! ويطول بي التفكير: ما بالنا لا بواكي لنا؟! ما بالنا لا يعزّي بنا قريب أو بعيد بعمامة أو ربطة عنق بلحية أو شارب أو حليق؟! أما زعموا أنه انتهى عصر الرقيق وتساوي البشر في "الإنسانية" ومات هتلر الوحيد الذي أدعى تفوق عرق من البشر على الآخرين؟!

تضي فتاة في جنوب تركيا فيتقاطر المسؤولون من الوزراء والنواب حتى رئيس الحكومة على العزاء بها، ويتصل رئيس الجمهورية رجب طيب أردوغان بنفسه معزياً، ويزور المسؤولون المبعد الذي كانت تجلس فيه في مدرستها يضعون الورود عليه، يواسون زميلاتها وزملاءها. وما هي إلا أيام ويبدلون اسم حديقة كبرى في مدینتها ليجعلوها باسمها مع بوفيه مجاني عن روحها؛ فأترحّم وقتها على (فاطمة أفلان) وأبكي عليها فتاة قضت في عمر الورود على يد شرذمة مارقين من الإنسانية، ويطول بي البكاء على آلاف أمثالها لم يُتح لها من يعزّي أهليهم إن لم يكونوا قد قبضوا معهم، وعلى حكومة هي من جنت فلا تسأل الجاني عن جرمه!!

مع سنوات مرّت على السوريين كانت دمائهم وأرضهم وأعراضهم فيها كأنما هي بورصة أموال تزيد وتنقص، وكلما تقادم العهد بها ازدادت رخصاً وكثيراً مشتروها حتى ما عدنا نعرف في أي سوق نخاسة تم بيعنا وأي شايلاوك يتاجر بنا وبقضيتنا؟! فكنا نعد الشهداء واحداً تلو الآخر، ثم صرنا نعدّ المجازر مجرزة تلو أخرى، وانتهينا نعدّ الكوارث نازلة تلو أخرى، ويستمر حمام الدم القاني في سوريا دون توقف.

لم يرخص الدم السوري فحسب وبُطّر في الطرق، بل سقطت معه شعارات ودعاوي كثيرة، وانمحت معه خطوط حمراء وصفراء ومن كل الألوان، فما عاد لنا سوى دموع الإنسانية؛ فلا العرب ليّوا ولا المسلمين، فروابط القومية والدين والعشائرية تداعت وُطئت تحت أقدام الأطفال تتشحط بدمائها على منحر الكرامة الإنسانية في الغوطة الشرقية. فأي إنسانية فيمن يتغنى بأصوات المقتولين والمصابين! أهؤلاء من البشر في شيء؟! ألا فلتسقط الشعارات واللواءات السياسية والحزبية تحت أقدام الطفولة البريئة التي تضي فتاهنها رحى حرب بالوكالة بين أكابر المجرمين.

ألا فلتسقط كل المنظمات الدولية التي تدّعي "الحقوقية" أو "حماية الطفولة" وهي لا تقدر أن تصرخ بحق الطفولة أن تحيا في الغوطة الشرقية وكل سوريا بأمان! ألا فلتسقط كل المجالس والجمعيات وهي تنظر في الشاشات آلاف الضحايا كأهون من منظر الأضاحي عليها! قد نظر النبي الكريم صلّى الله عليه وسلم عقب غزوة أحد، والناس تفرقت بين المسلمين المقتولين ويكون شهداءهم، فقال: "أما حمزة فلا بواكي له" مع أن إصابته لم تكن إصابة عادية؛ فهي قتل وتمثيل بشع في جثته، فنواسي أنفسنا: مصابنا كبير، لكن لا بواكي لنا، ويكفيانا أننا على الحق، ومن يبكي آلامنا فلبقية الإنسانية فيه، ومن لا يبكي فهو أحق من بالبكاء لأن إنسانيته ماتت، وكفى بها بلية ومصيبة!

لتبقى مأساة الغوطة الشرقية إنسانية قد تُحسن العيون التعبير عنها بالدموع، لكن الحرف - بلا شك - يقصر عن الترجمة فيها مما في القلب؛ فأين الحروف من لغة القلوب والعيون، وفي مثلها يصح:

نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنَكَ فَاسْتَعِرُ .. عَيْنَا لِغَيْرِكَ دَمَعُهَا مِدْرَارُ  
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبَكِي بِهَا .. أَرَأَيْتَ عَيْنَاً لِلْدُمُوعِ تُعَارُ!

إننا لا ننجد لغوطه الشام ألمًا لرجم، ولا ألمًا لجوار، ولا ألمًا لدين وعقيدة؛ إنما ننجد الألم الإنساني، ألم الإنسان على الإنسان؛ وذلك أضعف عرى الإنسانية التي إن خرج الإنسان عنها انحط في درك قد يبعد في دركات الحيوانية، أو لعله أشد ضلالاً!

المصادر:

مدونات الجزيرة